اللعب مع الكبار

وبمرور الوقت، استطاع الباشا بعزيمة فولاذية وبمساعدة الخبراء الفرنسيين، وبتسخير طاقات المصريين تحقيق الجزء الأكبر من مشروعه الكبير، وأصبح يمتلك جيشًا نظاميًا قويًا واقتصادًا هائلًا، وحركة تجارة دولية ومصانع حربية وترسانة وأسطول قوي، وشبكة ترع ومصارف وسدود لتنظيم الري، ورقعة زراعية لم تشهدها البلاد من قبل، كما قام بتشييد عديدٍ من المنشآت الرائعة والقصور، وحان الوقت للعب دولته مع الكبار كدولة عظمى تستحق أن تحتل مكانها الذي يليق بها، وكنِدٍّ للدولة العثمانية نفسها.

وتبدأ قصة اللعب مع الكبار عندما تجاوز جيش الباشا ميادين القتال التقليدية القريبة كالسودان وجزيرة العرب، وأصبح يقاتل في أوروبا نفسها، وقد حدث ذلك عندما طلب السلطان العثماني من الباشا توجيه جيشه وأسطوله للقضاء على الثورة في اليونان، التي كانت في ذلك الوقت إحدى ولايات الدولة العثمانية. واستطاع إبراهيم باشا أن يثبت جدارته في القيادة، كما أثبت الجيش المصري كفاءة عالية في القتال في البر والبحر، وخاض عديدًا من المعارك الناجحة في كريت والمورة، مما لفت انتباه الغرب لتنامي قوة محمد علي باشا، ولكنهم كانوا يقفون مع الثورة اليونانية ضد الدولة العثمانية؛ فكان لهم رأي آخر.

ولم تكن حروب محمد علي سواء في الجزيرة العربية أو في السودان في نظر أوروبا إلا أعمالًا محلية نوعًا ما، ولم تهدد أعماله في لحظة من اللحظات المصالح الأوروبية، أو تثير مشكلة حقيقية للقوى العظمى بخلاف الحرب في اليونان، إذ ستكون مثقلة بالانعكاسات بالنسبة لأوروبا وللباب العالي. وكان الباشا في تلك الفترة مقيما بقصر رأس التين الذي كان قد شيده في الإسكندرية، وكانت حاشيته وكبار رجال دولته قد انتقلت إلى الإسكندرية، ليتواجدوا بالقرب منه لتنفيذ أوامره وتدبير أمور الدولة من هناك، وكان الباشا يتابع مع كبار القادة سير المعارك الحربية والبحرية التي يقودها ابنه الأكبر إبراهيم باشا، ومعه صهره محرم بك قائد الأسطول المصري، بينما كان يقود الأسطول العثماني القائد البحري العثماني طاهر باشا، وقد كوَّنا معًا أسطولًا مشتركًا، بينما كانت القيادة العليا لجميع القوات البرية والبحرية لإبراهيم باشا.

ويذهب دروفتي صديق الباشا مساءً إلى قصر رأس التين، ويختلي به ساعة ثم يغادر القصر، ولكنه يترك الباشا في حالة غير التي كان عليها قبل اللقاء، ولأول مرة يشعر الباشا بالتوتر والقلق، وكان لاظ بك أول شخص فكر فيه الباشا وهو في هذه الحالة، فأرسل في طلبه، ويحضر لاظ، ويشاهد الباشا لأول مرة وعلى وجهه علامات القلق، فلقد رأى من قبل علامات الحزن والبكاء، ولكنه لم يلاحظ قلق الباشا من قبل، لقد كان قلقًا

مصحوبًا بالغضب والحيرة وكثيرٍ من المشاعر المتضاربة اجتمعت كلها على وجه الباشا، ويعلو صوت الباشا في عصبية قائلًا:

- أين أنت يا لاظ، أين أنت؟

- تحت أمرك يا أفندينا، ماذا حدث؟ حفظكم الله من كل سوء!

- إنهم يهددوننا يا لاظ، ويطلبون منا الوقوف على الحياد في حرب الباب العالي ضد الثورة اليونانية!

- عفوًا يا سيدي، ولكن من هم الذين تجرأوا على ذلك؟

- كلهم يا لاظ، الفرنسيون والإنجليز، بل والروس أيضًا، وجميع الدول الأوروبية، كلهم يا لاظ يقفون مع اليونان، وهم الذين كانوا يتقاتلون بالأمس أصبحوا أصدقاء اليوم!

- وما الذي يمكنهم فعله يا أفندينا؟

- لقد أخبرني دروفتي أنهم سيقاتلون العثمانيين، وسيقاتلوننا معهم إن ارتبطنا بهم برًّا وبحرًا، ونصحنا بالابتعاد عنهم وسحب قواتنا والوقوف على الحياد!

- لن يتمكنوا من هزيمتنا يا أفندينا..

- لا داعي للمبالغة يا لاظ، فهؤلاء هم الذين درَّبوا قواتنا على القتال برًّا وبحرًا، وساعدونا في بناء جيشنا وأسطولنا، ويعرفون عنا أكثر مما نعرفه

نحن عن قوتنا، وقد كنت أظن أنه قد أصبحت تربطنا بهم علاقات قوية، ولكن يبدو أن المصالح تغلبت على كل شيء!

لم يعرف لاظ ماذا يقول، فهذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها لهذا الموقف مع الباشا، وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يلتزم الصمت، ليتمكن الباشا من الحديث عن كل ما يهمه ويقلقه، فقد يكون ذلك تخفيفًا لما يعانيه من توتر وقلق، وبالفعل تحدث الباشا عن كل ما يمكن حدوثه وجميع الاحتمالات، وشيئًا فشيئًا بدأ يهدأ ويفكر بهدوء، ولكن بصوت مسموع، وهكذا نجحت فكرة لاظ في امتصاص غضب الباشا والتخفيف من حدة توتره. وبعد أن عرف الباشا من دروفيتي موقف فرنسا ورغبتهم في وقوفه على الحياد، يستقبل في اليوم التالي المبعوث الإنجليزي إذ يقول له:

– نريد معرفة حقيقة ماذا سيكون موقف الحكومة الإنجليزية تجاهنا، في حال تخلينا عن الباب العالي فشرع في الانتقام منا؟

– سوف أرسل يا صاحب السمو رسالة إلى حكومتي بما طلبتم معرفته، وسأوافي سموكم بالرد بمجرد وصوله.

ويقرر الباشا أيضًا من خلال دروفتي إرسال رسالة مشابهة للحكومة الفرنسية. ولكن لم يأته أي رد من الجانبين، فشعر بوجود مؤامرة، خاصةً أن كل ما حصل عليه مجرد مبادرات شخصية من كلا الجانبين، لا تعبر عن موقف الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، وكانت النصائح كلها تدعوه لعدم

التدخل والوقوف على الحياد، ولكن لا يعطيه أحد أي ضمانات. وهكذا تم التلاعب بالباشا من القوى العظمى، فهو لا يدري ماذا سيفعل، وظل الوضع هكذا والمفاوضات بين الدول تتم دون علم الباشا، ولا يرد أحد على رسائله إلى أن وقعت الكارثة.